بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 75 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة الإنسان

التاريخ:31\01\2024 م كتبه: عبدالله ضيف الستري

كان الكلام في النظرية الخامسة للتفريق بين الإنزال والتنزيل، والتي ذهب إليها بعض المعاصرين، وأردنا توضيحها ضمن نقاط، وتقدمت نقطة الأولى، وهي مسلمة فلا يوجد فيها بحث، أنه حتى لو ورد نص من قبل المعصوم عليه السلام في التفريق بين أمرين لا ينبغي أن نتناوله تناولاً سطحياً، بل لا بد أن ندقق فيه ونبحث عن انطباقاته المتعددة، ونرى النكتة الأساسية التي على ضوئها فرق النص المعصوم عليه السلام بين هاتين المفردتين أو هاتين القضيتين وما شابه ذلك.

النقطة الثانية: الفهم السطحي الذي رفضناه في النقطة الأولى قد ينجح في التفريق بين تنزيل القرآن وإنزال التوراة بالطريقة التي ذكرها الزمخشري في النظرية الأولى، فيقال إن الأمر سهل، القرآن باعتبار أنه نزل على مُكث بالتدريج فالتنزيل يستعمل في موارد النزول التدريجي، والتوراة والإنجيل باعتبار نزلتا دفعة واحدة فاستعمل معهما مفردة الإنزال، فالإنزال يستعمل في موارد النزول الدفعي.

فبالنظرة السطحية قد نقبل هذا التفريق. لكن موارد الإنزال والتنزيل في اللغة العربية، بل وفي القرآن الكريم، لا تنحصر بالقرآن والإنجيل والتوراة، فالذي أنزل هذه الأمور ونزّلها أنزل أيضاً ونزّل المن والسلوى، والذي أنزل هذه الأمور ونزّلها أيضاً أنزل ونزّل الماء من السماء، وأنزل الحديد وأنزل أموراً كثيرة.

فحينئذ لا يكفينا أن نطبق مفردتي الإنزال والتنزيل على الكتب السماوية فحسب لنصل إلى نتيجة نهائية، بل لا بد أن نرى أن هذا التفريق بين الإنزال والتنزيل في مورد الكتب السماوية هل ينسجم مع سائر الموارد التي جاء فيها إنزال وتنزيل في القرآن الكريم. فمن يكتفي بتطبيق الإنزال والتنزيل على الكتب السماوية يكون قد فرّق بينهما تفريقاً سطحياً.

أما التفريق الدقيق والناشئ من العناية والتأمل لابد أن ترى أن هذا الفرق هل ينسجم مع كون متعلق الإنزال والتنزيل هو الماء، هو الحديد، هو المن والسلوى أو لا ينسجم.

وخلاصتها: يجب أن يكون بين تمام الموارد ارتباط منطقي وانسجام موضوعي، ولا يكفي الأخذ بمورد وموردين للفريق.

النقطة الثالثة[1]: الهيئة في اللغة العربية لها دخالة؛ لأننا قرأنا في علم الأصول أن الوضع في الهيئات يكون وضعاً نوعياً، أي: الواضع يضع صيغة فاعل بالوضع النوعي، مع قطع النظر عن المادة التي تحل فيها الهيئة، فتنطبق على ضارب وعلى نائم وعلى قائم وهكذا.

فحينئذ -من باب تقريب الفكرة- لو ترددنا في معنى قائم، وكنا نحرز معنى ضارب فهذا ينفعنا؛ لأن الهيئة فيهما واحدة. وهكذا الحال في كل الموارد التي يكون الوضع فيها وضعاً نوعياً.

إذا كان الأمر كذلك، فالتنزيل والإنزال بلحاظ الهيئة لها نظائر في اللغة العربية ولها موارد في القرآن الكريم، من جملة النظائر مفردتي البلاغ والإبلاغ، هاتان المفردتان نظيرتان لمفردتي التنزيل والإنزال.

الفرق بين البلاغ والإبلاغ، إذا كان هذا الفرق واضحاً ومنسجماً مع تمام موارد هاتين المفردتين، فينفعنا في التفريق بين التنزيل والإنزال لما ذكرناه قبل قليل:

الهمزة التي تدخل على مثل هذه الموارد في اللغة العربية تعطي معنى التعدي، ولذا يقال لها -كما عرفنا سابقاً- همزة النقل؛ لأنها تنقل الفعل من الفعل اللازم إلى الفعل المتعدي، فتعطي معنى التعدي.

لكن لا ينبغي لنا أن نقصر النظر على صرف التفريق النحوي بين الكلمتين، فهذا لا ينفعنا لوحده. فمن هنا نفهم أنه لابد أن نتعدى إلى الموارد لنرى جهات الاشتراك بينها. فنرى أن عملية البلاغ هي عملية نقل من شخص إلى غيره من دون التأكد من أن الشخص المنقول إليه قد وصله البلاغ ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ﴾[2] السلطة التشريعية تقنن قانوناً فتضعه في الجريدة الرسمية فحصل البلاغ، لكن لا يعني هذا أنه وصل إلى كل الناس. هذا نسميه بلاغاً.

---

[1] وهذا بتعبير مني، فأحاول أقوي هذا الوجه قبل أن أناقشه.

[2] إبراهيم: 52

فالذي يصدر منه البلاغ لا يحصل له تأكد في الوصول، قد يصل إلى بعض الناس، ولا يصل إلى البعض الآخر. فعندما يصل هذا البلاغ إلى من يراد تبليغه يتحول من بلاغ إلى إبلاغ.

لذا نلاحظ في القرآن الكريم حافظ على هذه الخصوصية، وعلى هذا الفرق، مثلاً: مع النبي الأعظم ﷺ قال الله تعالى له: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[3] ولم يقل له أبلغ، لو قال له أبلغ لكان على النبي ﷺ أن يتأكد من وصول فحوى الرسالة إلى الجميع، وإنما قال بلّغ، فأخذ بيد علي ابن أبي طالب عليه السلام وقال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه. وليبّلغ الحاضر الغائب.

هؤلاء بلّغوا أم لم يبلّغوا، لم يتابع النبي ﷺ ذلك، وإنما هذه الرسالة بلغها، وكان ممتثلاً بذلك لأمر الله تبارك وتعالى.

وبما أن النبي الأعظم ﷺ هو مبعوث للناس كافة، فيكون أمره بالإبلاغ بالطرق العادية من التكليف بغير المقدور، فكأنه قال له هذه الرسالة ضعها في وسائل الإعلام المتعارفة، منبرك في المسجد، خطابك قبل تفرق الحجيج. لا أن تتأكد من وصولها إلى كل فرد فرد، فيكون هذا بالوسائل الاعتيادية يكون من التكليف بغير المقدور؛ فلذا استعمل معه مفردة بلّغ.

أما بعض الأنبياء الآخرين الذين لم تكن رسالتهم عالمية، أُرسل إلى حي كنبي الله لوط عليه السلام، أُرسل إلى قرية كنبي الله هود عليه السلام، هذا تكليفه أن يوصله إلى كل بيت بيت، ولا يكون تكليفاً بغير المقدور. فنلاحظ أنه استعمل كلمة الإبلاغ، مثلاً في حق النبي صالح عليه السلام قالت الآية: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي﴾[4] ولم يقل لقد بلّغتكم، بل أوصلت الرسالة إلى كل واحد منكم، وهذا أمر مقدور كما في حي أو قرية.

---

[3] المائدة: 67

[4] الأعراف: 93

كذلك في حق النبي شعيب عليه السلام قال: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي﴾[5] ولقوم هود قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾[6] أيضاً قال: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِم﴾[7] هؤلاء الأنبياء الذين أرسلوا إلى قرى وأحياء.

إذاً في الموارد التي يكون القصد فيها إلى إيصال الرسالة لكل فرد فرد تستعمل الآيات القرآنية مفردة الإبلاغ، أما في موارد الإعلام ووضع الرسالة في موضع الوصول فاستعمل مفردة البلاغ.

وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ﴾[8] أي: وضع هذا القرآن في مورد الوصول لكل من يتأتى منه أن يصل إليه. فهذا يعني أن البلاغ هو مجرد عملية نشر الخبر أو الرسالة، والإبلاغ هو عملية التأكد من وصوله.

إذاً بمقتضى هذه الآيات استطعنا أن نفرّق يشبهان ما نبحث عنه من ناحية الهيئة، فإن التنزيل والإنزال مثل البلاغ الإبلاغ.

لقائل أن يقول: إن هذا التفريق ما بين البلاغ والإبلاغ لا نسلمه حتى نستعين به في مورد التنزيل والإنزال، بل ينقض عليه بقوله تبارك وتعالى في سورة الأحقاف قال: ﴿قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ﴾[9] أبلّغكم هذا تبليغ وليس إبلاغاً؛ لأن ماضي أبلّغكم بلغتكم لا أبلغكم، أبلّغكم فعل مضارع، فهو من البلاغ لا من الإبلاغ؛ لأن هذه ليس إبلاغاً فهذا فعل مضارع، والفعل المضارع إذا رددناه إلى أبلّغ إلى الفعل الماضي يكون بلّغ وبلّغتُ، بلّغتُ من التبليغ، والبلاغ وليس من الإبلاغ.

وهذه صدرت من بعض الأنبياء الذين أرسلوا إلى قرى محدودة.

الجواب: أن هذا قد يكون في بداية الدعوة، ففي بداية الدعوة يوجد بلاغ، وبعد ذلك على مدة قد تكون طويلة تبدأ عملية الإبلاغ.

---

[5] الأعراف: 79
[6] هود/ 57
[7] الجن: 28
[8] إبراهيم: 52
[9] الأحقاف: 23